كتاب رسوم دار الخلافة

لهلال بن المحسن الصابئ

الأستاذ ميخائيل عواد

استوطن بغداد فى صدر الدولة العباسية فئة نحلتها الصابئية، نزحت إليها من حرّان والرقة المشهرتين بمنازل الصابئة . تلك الفئة هى آل زهرون وأنسباؤهم آل قرّة

أصابت هذه الجماعة الصابئية فى بغداد نصيباً وافراً من العلم والأدب والطب ، فبهرت فى كلياتها وجزئياتها ، ودفعتها فطنتها وتوقد ذكائها إلى تقلد جلائل الأعمال بخدمة خلفاء بنى العباس وأمرائهم ووزرائهم ، فسار ذكرها فى الآفاق ، وكان عليها المعاد لطائفة من الأعمال التى قامت بها خير قيام

ومما زاد فى علو شأن هذه الأسرة أن جماعة من أفرادها خلّفوا مؤلفات جليلة فى بحوث نافعة كالأدب والتاريخ والطب والفلك وغيرها . وسيكون مدار كلامنا[1] على أحد أعلام هذه الأسرة وهو : « هلال بن المحسّن الصابئ » .

مولده ونشأته

هو أبو الحسين [وقيل أبو الحسن] هلال بن المحسن[2] ابن أبى إسحق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون ابن حيّون[3] الصابئ[4] الحرّانى[5]، لقّب بالرئيس ، كان مولده ببغداد فى شوال سنة تسع وخمسين وثلثمائة للهجرة ، ونشأ بها. وكان أبوه المحسّن صابئياً ، وأمه أخت ثابت بن سنان بن قرّة

(١) إن جميع ما ذكرناه فى هذا المقال مستخلص من المقدمة المسهبة التى وضعناها لكتاب : « رسوم دار الخلافة » الذى نعنى بنشره الآن

(٢) المحسن كمحدث ، وغلط من ضبطها كمكرم (عن المساعد : وهو معجم للاب أنستاس مارى الكرملى ، لا يزال مخطوطا)

(٣) حيون كقيوم (المساعد)

(٤) الصابئ مهموزة الآخر ، وأخطأ من كتبها بالياء ، لأن المعنى يتغير تغيراً عظيما (المساعد)

(٥) هكذا اشتهر عند العوام . والاصح الحرنانى ؛ لأن النسبة إلى حران للعاقل حرنانى ؛ ولغير العاقل حرانى (المساعد) ، وانظر الزبيدى فى تاج العروس (٩ : ١٧٣ مادة حران)

١٤٠٦٢

الطبائى المؤرخ الشهير . وقد أسلمَ هلال فى أواخر أيامه ، وحسن إسلامه[1] . ويُعَدّ أوّل أبناء بيته الذى ترك نحلته القديمة ليسلم

تغلغل هلال فى دار الخلافة العباسية ببغداد ، فعرف نواحيها ورسومها وأسرارها، وبرع فى آداب الخلفاء ومجالسهم حتى فاق جده إبراهيم ؛ ذاك الذى خنق التسعين فى خدمتهم . وتولّى هلال أموراً عديدة منها ديوان الإنشاء[2] ، وعُيّن حيناً كاتباً لأسرار تخر الملك أبى غالب محمد بن خلف الذى ترك له مبلغاً كبيراً من المال عند وفاته، غير أن هلالا امتنع عن التصرف فيه، لأنه كان يتقاضى ما يمكّنه من العيش من الدولة فترك الإرث لابنه غرس النعمة[3]

اشتهر هلال بتاريخه ، كما اشتهر جدّه ابراهيم برسائله . وقد أدرجه القفطى فى كتابه « تاريخ الحكماء » فى سجل من اشتهر بتدوين التاريخ . فهو يبتدئ بذكر الطبرى ، وينتقل إلى ذكر أحمد بن أبى طاهر وولده عبيد الله فالفرغانى ، إلى أن قال: « فإن قرنت به [أى كتاب التاريخ لثابت بن سنان] كتاب الفرغانى الذى ذيل به كتاب الطبرى فهم الفضل تفضله ، فإن فى كتاب الفرغانى بسطاً أكثر من كتاب ثابت فى بعض الأماكن، ثم كتاب هلال بن المحسّن بن ابراهيم الصابئ، فإنه داخل كتاب خاله ثابت وتمم عليه إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة [أى قبل وفاته بسنة واحدة] ، ولم يتعرض أحد فى مدته إلى ما تعرض له من إحكام الأمور والاطلاع على أسرار الدول ، وذلك أنه أخذ ذلك عن جده لأنه كاتب الإنشاء وبعلم الوقائع ، وتولى هو الإنشاء أيضاً ، فاستعان بعلم الأخبار الواردة على ما جمعه ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال ، وهو كتاب

(١) سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان : ــ ينقل ما رواه هلال عن قصة إسلامه ــ مخطوط ذو رقم (١٥٠٦ عربى) من دار الكتب الأهلية بباريس ، ورقة ١١ ، ١٩ ، ٢٠) [من الدكتور مصطفى جواد]

(٢) مجلة الجمعية الآسيوية الملكية البريطانية ، سنة ١٩٠١ (ص ٥٠١ و ٧٤٩)

(٣) راجع المملة الاسلامية (٤ : ٢١) ، ومقدمة تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٦

حسن إلى بعد سنة سبعين وأربعمائة بقليل ، وقصر فى آخر الكتاب لمانع منعه الله أعلم به ...[1] »

ثم شهد له مرة أخرى حيث قال : « ولولاهما [ثابت وهلال] لجهل شيء كثير من التاريخ ...[2] »

وهذا السخاوى نجده يذكر هلالا فى ثبت من ألف فى التاريخ العام ، ثم يعود إليه ثانية فيذكره ضمن مَنْ اشتهر فى كتابة تواريخ الوزراء[3]

سمع هلال قبل أن يسلم جماعة من مشاهير النحاة وتأدب بهم ، منهم : أبو على الفارسى النحوى ، وعلى بن عيسى الرمانى ، وأبو بكر أحمد بن محمد بن الجرّاح الخراز . فنبغ فى علمه وأدبه حيث قال فيه سبط ابن الجوزى : « ... كان هلال من الفصحاء وله الكلام الفصيح والنثر المليح »

اشتهر بالصدق والأمانة ، كما شهد له بهذا فريق من مشاهير الكتبة . منهم الخطيب البغدادى الذى كان معاصراً له قال فيه : « ... كان هلال ثقة صدوقاً »[4] . وذكره آخرون بكل ثناء وتقدير فى مناسبات مختلفة : كياقوت الحموى ، وابن أبى أصيبعة وابن عبد الحق ، والسخاوى ، وحاجى خليفة ، وغيرهم ...

توفى هلال ليلة الخميس سابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين للهجرة عن تسع وثمانين سنة . قال فيه ابنه : « توفى والدى الرئيس أبو الحسين هلال ... فانتقض السؤدد بمصابه ، وانثلم الفضل بذهابه »

وتوفى هلال عن بعض الولد ، أخصهم بالذكر أبو الحسن محمد « غرس النعمة » رزقه سنة ٤١٦ للهجرة بعيد انتقاله إلى الإسلام حيث قال عن نفسه فى قصة إسلامه : إن النبى (ص) قال له فى المرة الثانية : وتحقيق رؤياك إياى أن زوجتك حامل بغلام ، فإذا وضعته فسمه محمداً . فكان كما قال . ولد له ذكر فسماه محمداً وكناه أبا الحسن . وكان هذا الأمر من جملة ما رآه هلال فى المنام ومجيء النبى (ص) إليه ثلاث مرات يدعوه بها إلى الإسلام .

نشأ محمد غرس النعمة فى كنف أبيه وفى رعايته ، فأخذ عنه العلم والأدب فنبغ فيهما . وقضى بعض الزمن فى دار الإنشاء للخليفة القائم . قال سبط ابن الجوزى فى أول حوادث سنة ٤٤٨ : « من أول هذه السنة ابتدأ أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن ابن ابراهيم الصابىء الكاتب ، ويسمى غرس النعمة تاريخه وذيّله على تاريخ أبيه هلال ، وزعم أن تاريخ أبيه انتهى إلى هذه السنة[1] » . وصنف كتباً أخرى نفيسة كان مصيرها الضياع[2]

وكانت وفاة محمد غرس النعمة سنة ثمانين وأربعمائة ، فزال مجد بيته بموته[3]

* * *

وضع هلال طائفة من الكتب الجليلة فى بحوث متنوعة ، سطت على أغلبها يد الزمن العاتية ، فلم يسلم منها إلا النذر اليسير

وقد اقتصرت المراجع القديمة على ذكر بعض من مؤلفاته فإن ابن خلكان يقول : « ... ورأيت له تصنيفاً جمع فيه حكايات مستملحة وأخباراً نادرة ، وسماه كتاب الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان ، وهو مجلد واحد ، ولا أعلم هل صنف سواه أم لا ...[4] »

وذكر هذا الكتاب ياقوت الحموى قال : « ... وصنّف [هلال] كتاب الأماثل والأعيان ... جمع فيه أخباراً وحكايات مستطرفة مما حكى عن الأعيان والأكابر ، وهو كتاب ممتع . ومما يستحسن من تلك الأخبار ، قال : حدث القاضى أبو الحسين عبد الله بن عياش [عباس بالأصل] أن رجلاً اتصلت عطلته وانقطعت مدته ...[5] »

وقد جاء باسم « الأعيان والأمثال » فى كتاب بدائع البدائه لعلى بن ظافر الأزدى المصرى

أولاً — قلنا : هذا الكتاب هو تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، وهو تكملة لتآليف الصولى والجهشيارى ، ولم يبق لنا منه إلا البداءة التى نشرت ، حيث أن تراجم بعض الوزراء قد فقدت . ذكر فيه أخبار وزراء بنى العباس وشرح أحوالهم ومجارى أمورهم . ابتدأه بأخبار أبى الحسن على بن محمد بن موسى بن

(١) و (٢) القفطى فى تاريخ الحكماء (ليبسك ص ١١٠ ، ١١١) وانظر حاجى خليفة فى كشف الظنون (طبعة فلوجل ٢ : ١٢٣)

(٣) السخاوى فى الاعلان بالتوبيخ (ص ٩٧ ، ١٥٩)

(٤) الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (١٤ : ٧٦)

(١) سبط ابن الجوزى فى المرجع الآنف الذكر ، وحاجى خليفة (٢ : ١٣٨)

(٢) القفطى ص ١١٠ ، وابن خلكان فى وفيات الأعيان (بولاق ٢ : ٣٠٠) ، وحاجى خليفة (٦ : ٥٠٣)

(٣) المعلمة الاسلامية (٤ : ٢٢)

(٤) ابن خلكان (٢ : ٢٩٩ — ٣٠٠) ، وابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب (٣ : ٢٧٩)

(٥) ياقوت الحموى فى معجم الأدباء (طبعة مرجليوث ٧ : ٢٥٥) ، وهذه الحكاية التى نقلها ياقوت توافق ما ورد فى ص ١١٣ من تحفة الأمراء

الفرات نشره المستشرق الإنكليزي آمدروز Amedroz (بيروت مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٤) ووضع له مقدمة وملاحظات باللغة الانكليزية في نحو ٤٠ صفحة ، وفهرساً لأسماء الرجال وآخر لأسماء الأماكن . وفي أوله نبذة في ترجمة هلال الصابئ ومؤلفاته ، نقل أغلبها عن سبط بن الجوزي ، وورقتان بالفتوغرافية[1] في جانب من ترجمة أبي إسحق الصابئ[2]

ثانياً — كتاب التاريخ : ذيل به تاريخ خاله ثابت[3] بن سنان — كما صرّح بذلك القفطي في تاريخ الحكماء ص ١١٠ — ويحتوي على الحوادث التي وقعت من سنة ٣٦٠ — ٤٤٧ هـ . والقطعة التي نشرت تحوي حوادث السنوات (٣٨٩—٣٩٣ هـ) وإن الأخبار الصادقة في هذه القطعة لخير برهان على نفاسة الكتاب . نشره أيضاً آمدروز مع تحفة الأمراء بعنوان : « الجزء الثامن من كتاب التاريخ » (ص ٣٦٦ — ٤٨٤)

ثالثاً — غرر البلاغة في الرسائل : وهو مقتطفات من رسائله الخاصة به . ذكره القلقشندي حين كلامه على نسخ الأيمان المتحلفة بالخلفاء ، واقتطف منه نسخة يمين[4]

رابعاً — كتاب الرسالة عن الملوك والوزراء : وهو مجموع رسائله الرسمية ، وتذكرنا رسائل جده أبي إسحق إبراهيم الصابئ

خامساً — كتاب أخبار بغداد : وهو تاريخ جليل لمدينة بغداد يشهد بذلك ما نقله ياقوت عنه في معجمه البلداني[5]

سادساً — كتاب مآثر أهله : وهو تاريخ لأهل بيته . ولا شك أنه حوى معلومات طريفة عمن نبغ من أهله في مختلف النواحي العلمية والأدبية والسياسية

سابعاً — كتاب الكتاب : وهو تأليف يخص كتبة الأسرار والظاهر أنه على غرار مصنف الصولي واسمه كاسمه

ثامناً — كتاب السياسة : لم يصل إلينا منه شيء

(١) تقابلان الصحائف : ٤٣٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ من تحفة الأمراء

(٢) فهرس دار الكتب المصرية (٥ : ١٢٦)

(٣) حاجي خليفة (٢ : ١٢٣)

(٤) القلقشندي في صبح الأعشى (١٣ : ٢١١)

(٥) ياقوت الحموي في معجم البلدان (ليبسك ١ : ٥٥٨ و ٢ : ٢٥٥ ، ٥٤٢ ، ٥٦٥ و ٤ : ١٢٣)

تاسعاً — كتاب رسوم[1] دار الخلافة : وهو الذي نعنى بتحريره وتعليق حواشيه ونشره[2]

وقبل البدء في وصف هذه المخطوطة نقول[3] : إن مؤلفات هلال هي تسعة ، عرف منها حتى الآن : (١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، (٢) قطعة من كتاب التاريخ ، (٣) رسوم دار الخلافة .

وصف شامل لمخطوطة رسوم دار الخلافة

١ — عثر عليها في دار الكتب الازهرية بالقاهرة ، وهي خالية من الرقم

٢ — عنوانها مثبت بمفرده على الصفحة الأولى وبالصورة التالية : « رسوم دار الخلافة تأليف أبي الحسين هلال بن المحسن ابن ابراهيم الصابيء »

٣ — تشتمل المخطوطة على ٢٠٣ صحائف في كل منها بين ٨ — ١٤ سطراً

٤ — كتابتها يغلب على نوعها الخط الديواني ، صعب القراءة وقد استعمل الناسخ لألفاظ الأعداد كتابة ديوانية أيضاً لكنها في منتهى الغرابة ، إذ يصعب حلها وقراءتها ، وقد يحار بين يديها الكثير من النساخ والمكتاب ، حتى من تضلع من قراءة المخطوطات المغلقة .

٥ — المخطوطة حافلة بالكلمات المغلقة ، قليلة التنقيط ، خالية من الحركات وعلامات الوقف . وهذه النواقص وغيرها جعلت كثيراً من الكلمات تقرأ على غير وجه واحد

(١) الرسوم ومفردها الرسم ويراد بها في هذا السفر معنيان ، نوردها هنا بوجه الاختصار للتعريف بهما دون التفصيل

الأول : مجموع العادات التي يجري عليها في مقابلة الناس أو معاملتهم في شؤون الألفة . وهذا ما يعرف في الفرنسية بأتيكيت Etiquette

والمعنى الثاني : مجموع الاحتفاء بالناس في الأمور السياسية والقيام بها وفي مقابلة الملوك وعظام الدول وهذا يعرف بالفرنسية بالتروتوكول protocole

وهذان المعنيان يتضحان كل الاتضاح من عناوين فصول الكتاب وشروحها (المساعد)

(٢) بسطنا في مقدمة هذا الكتاب وهي التي أثبتناها في موطنها ، قصة العثور على هذه المخطوطة الفريدة وافترن ذلك بالشكر لمن كان سبب الخير في بثها من التلف . ثم الاعتراف لأولئك العلماء المحققين الذين جاهدوا معنا في كشف كثير من معمياتها ، وإمدادهم لنا بتعاليقهم الطريفة

(٣) استمنا في سرد مؤلفات هلال بما كتبه المستشرق نرينس كرنكو F. Krenkow في معلمة الاسلام (٤ : ٢١ — ٢٢)

٦ — فى بعض مواطنها شىء من الخرم ، كما أن الأرضة لعبت لعبها فاستفاضت أكل بعض المواضع فغاب رسمها

٧ — وردت كلمة « رحمة الله عليه » ٤٦ مرة ، فكتبت ٤٥ مرة بالتاء المبسوطة أى « (رحمت) الله عليه » ، ومرة واحدة بالهاء المربوطة أو المعقودة

٨ — استعمل المؤلف كثيراً من الكلمات الفارسية التى شاع استعمالها فى الدولة العباسية ، وكان قد ألفها الناس وجرت على ألسنتهم ، وغالب هذه الكلمات هى أسماء لآلات الحرب ، وطائفة من أسماء اللباس والطعام

٩ — جاء فى الصفحة (٢٠٣) وهى الأخيرة العبارات التالية: « عورض به الأصل بخط المصنف وصح والحمد لله رب العالمين » وأعقبها : « الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، ويتلوهما ما نصه : « كان الفراغ من نسخه يوم الثلثاء التاسع من رجب سنة خمس وخمسين وأربعمائة من الأصل بخط الأستاذ أبى الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم رحمه الله » اهـ

وهذا النص يبيّن لنا قدمها ، وكانت استنسخت عن نسخة المؤلف بعد وفاته بسبع سنوات ، وعلى ما بدا لنا ، فإن هذه النسخة فريدة ، لأن فهارس المخطوطات العربية فى خزائن كتب أوربة والشرق لم تشر إلى وجودها فيها

يتقوم الكتاب من تسعة عشر فصلاً عدا المقدمة والخاتمة وهى كما يلى :

(الصفحة ٢ — ٨) المقدمة ، (٨ — ٣٧) ذكر أحوال الدار العزيزة [دار الخلافة] ، (٣٨ — ٩٨) آداب الخدمة ، (٩٨ — ١٠٩) قوانين الحجابة ورسومها ، (١٠٩ — ١١٧) من الرسم أن يزم الناس فلا يسمع لهم صوت ولا لفظ ، (١١٨ ـ ١٢٤) آداب مسايرة الخلفاء فى المواكب ، (١٢٥ـ١٢٧) جلوس الخلفاء وما يلبسونه فى المواكب ، (١٢٧ — ١٣٣) خِلَعُ التقليد والتشريف والنادمة ، (١٣٣ ـ ١٣٧) ما يحلف به الخليفة عند التقليد والتشريف بالتكنية واللقب ، (١٣٧ ـ ١٤٤) رسوم المكاتبات عن الخلفاء فى صدورها وعنواناتها والأدعية فيها وما يعاد منها فى أواخرها ، (١٤٤ـ١٤٨) خطاب الخلفاء فى الكتب والأدعية (١٤٨ — ١٥١) رسوم الكتب عن الخلفاء (١٥٢ ١٧١) الدعاء للمكاتبين عن الخلفاء وما كان الرسم أولاً جارياً به وانتهى أخيراً إليه ، (١٧١ـ١٧٤) الانتساب إلى مولى أمير المؤمنين (١٧٤ — ١٧٧) ما يذكر فى أواخر الكتب ... (١٧٧ — ١٧٩) الطروس التى يكتب فيها إلى الخلفاء وعنهم ؛ والخرائط التى تحمل الكتب صادرة وواردة ، (١٩٢ — ١٩٤) ضرب الطبل فى أوقات الصلوات ، (١٩٤ — ١٩٦) خطب النكاح ، (١٩٦ — ٢٠٣) خاتمة الكتاب

ويؤخذ من كلام هلال فى مقدمة الكتاب وخاتمته أنه ألفه فى زمن الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وأنه استفاد كثيراً من خبرة جده إبراهيم فى مثل هذه الشؤون التى ينطوى عليها الكتاب

(بغداد) مؤاديل عواد

اعلان

مجلس مديرية قنا يطرح فى المناقصة العامة توريد

(١) الأدوات المدرسية ومصورات الأشياء وخامات أشغال الابرة

(٢) الأثاثات الخشبية والصلب وأدوات النظافة والشرب

(٣) مجموعات الأدوية

(٤) ملابس غلمان ملجأى الأيتام

(٥) ترميم مدارس الخادمة والدير وأبى مناع غرب الألزامية

والقوائم والشروط الخاصة بذلك تطلب من إدارة المجلس نظير توريد مبلغ خمسين مليما ثمنا لكل قائمة من القوائم الخمس الموضحة بعاليه على أن يكون طلب هذه القوائم على ورق مدموغ من فئة الثلاثين مليما ولا تقبل طوابع البريد

وقد تحدد ظهر يوم الأحد ٢٣ يونيه سنة ١٩٤٠ لفتح المظاريف . ٦٨٧٨